هواجس كتابة الذات في سيرة أحمد أمين "حياتي"

مظاهر التعلّم والتعليم نموذجاً

الأستاذ المساعد الدكتور
صلاح الدين أحمد دراوشة
جامعة زايد ـ كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ـ قسم اللغة العربية ـ أبوظبي ـ
دولة الإمارات العربية المتحدة
Salah.Darawsheh@zu.ac.ae

Self-writing Obsession in Ahmed Amin's Biography "My Life" Learning and Teaching Manifestations as a Sample

Assistant Professor Dr.
Salah Al-Din Ahmad Darawsheh
Zayed University, College of Humanities and Social Sciences, Arabic anguage and Literature Department Abu Dhabi, The United Arab Emirates

الملخص:

تتناول هذه الدراسة سيرة أحمد أمين الموسومة بـ(حياتي) مُسلطة الضوء على الهواجس التي كانت تعتور صاحبها لكتابة سيرته، والتي أعلن عنها صراحة "لعلّها تفيد اليوم قارئًا، وتعين غداً مؤلفًا". ومن ثم فقد التزم بالميثاق السيرذاتي في تصوير الحياة الفكرية والثقافية لجيله، ملتزمًا الصدق والصراحة في نقل أحداثها المستمدّة من الواقع؛ فكانت سيرته بحقّ ثَبتًا تاريخيًا تُظهر صاحبها مؤرّخًا أكثر منه أديبًا. وبالرغم من تعدد المداخل لدراسة سيرة أحمد أمين فقد ارتأى الباحث أن يسلّط الضوء على الجانب الثقافي؛ ذلك لأنه قضى جلّ حياته في التعليم: طَالبًا ومُعلمًا ومُؤلفًا ومُحققًا ونَاقدًا. وقد عكست تلك المسيرة العلمية صراعًا حادًا بين ثقافتين ساهمتا في تشكيل شخصيته، الأولى: تقليدية، والثانية: عصرية، ويبدو ذلك الصراع جليا من خلال وصفه لأنماط التعليم التي كانت سائدة في عصره، إضافة إلى اتصاله بالآخر من خلال رحلاته العلمية وتعلّمه للغات الأجنبية، ونراه ينتصر إلى الثقافة التي تحاكي روح العصر، ولكنّه في الوقت نفسه لا يتنصل من الموروث، فيقيم معه صلة تخدم علوم العصر الحديثة، وتبني على القديم؛ لتؤسس علوما جديدة.

الكلمات المفتاحية: السيرة الذاتية، أحمد أمين، كتابة الذات، هاجس التعلم.

Abstract:-

This study attempts to shed light on Ahmed Amin's autobiography entitled "*My life*". It is a study that aims at highlighting the obsessions that pushed its author to write it. One of those obsessions that the author himself explicitly announced is that this autobiography "could benefit a reader today, and it could service a writer tomorrow". Indeed, the author adhered with the autobiographical pact in depicting the intellectual and cultural life of his generation using transparency, fidelity, and sincerity as tools to convey events of the real world, which made his autobiography be considered as a historical proof that shows him a historian more than a literary writer.

In fact, although Ahmed Amin's autobiography could be studied from different perspectives, this study aims to throw the light on cultural aspects simply because its author spent most of his life in the education domain, first as a student, a teacher, an author, an investigator, and, then, a critic. This professional career reflects an intense conflict between two different cultures that contribute to form his personality, namely traditional and modernity. This conflict is evident through his description of different Learning patterns that prevailed in his time, his contact with new cultures, and his learning of foreign languages abroad. All these factors assist him in building a personality that attempted to imitate the spirit of modernity and, at the same time, adhere to traditions and heritage. In so doing, he succeeded in creating a link that serves to build old sciences on modern ones resulting in the establishment of new sciences.

Key words: Autobiographia , Ahmed Amin, Self-writing, Learning obsession.

مـدخل:

هناك جوانب كثيرة في سيرة أحمد يمكن أن تكون مداخل إلى عالمها؛ فهي سيرة تزخر بالأحداث التي عاناها في حياته، ومن هذه المداخل ما توحي به عتبة العنوان المتمثلة في "حياتي"، وذلك باستعادة حياته التي وضعها موضع المتأمل، لا سيما وقد توالت نكساته الصحيّة، وهَرِم جسمه، واعتلّ بصره، فأصبح عاجزا عن ممارسة نهمه الذي لا يشبع منه، فالقراءة حياته ومتعته وأنيسه في وحدته، كما فقد آلاف الأصدقاء، كلّ صديق له لونه وطعمه وطرافة حديثه، هؤلاء الأصدقاء هم كتبه الذين يسعد بهم، ويأنس بمجالستهم، لا سيما بعد انفضاض القوم من حوله، بعد رحلة طويلة حافلة، ومسيرة من الإنجازات العظيمة؛ فها هي الذات المبدعة تخلدُ إلى راحة إجباريّة، فرضتها فاعلية الزمن، فانتصرت على إرادةٍ ما كانت تقنع أو تلين إلا أن تكون فاعلة مؤثّرة؛ فتسلّل الألم إلى تلك الذات العاجزة التي راحت تتأمّل رحلة الحياة، لتستردّ شيئا ممّا يُخفف من آلامها، والألم "يضطر الذات إلى أن تخلع على حياتها معنى"[١]، هكذا استعاد أحمد أمين حياته متأملاً مغزى الرحلة ومعناها؛ فكاتب "السيرة حينما يعيش لحظات الوحدة تلك، سرعان ما يرتدّ إلى مركز وجوده، وعندئذ تنبعث من أعماق سيرته مئات من الذكريات المجهولة التي تتداعى في ذاكرته"[٢].

ومن المداخل أيضًا ما يتراءى في سيرته من الكشف عن هاجس الصراع الداخلي الذي كان يعتور ذاته قبل أن يمضي في مشروعه السيري؛ فالتردد الذي عاشه يعكس صراع الذات المبدعة، بين الاستسلام لفعل الزمن، وبين مواجهته بفعل الكتابة في تماهيه مع حقيقة الوجود، انعكس ذلك الصراع في تأرجحه بين الإقبال والإدبار، فتارة تتضاءل الذات فترى أنّها أقلّ من أن تبوح لتكشف خباياها، وتارة تتردد في قدرتها على التّجرّد وانقسامها إلى ذات ناظرة وذات منظور إليها.

ذلك الصراع جعله ينحاز إلى قول الحقّ وإن لم يكن كلّه؛ فمن الحقّ ما يرذل قوله وتنبو الأذن عن سماعه، ولعلّ هذا ما يفسر منهجه في سيرته فهو "إلى ذوق المؤرخين أقرب منه إلى ذوق الأدباء... فانحدر في أغلب ما كتب من تاريخ نفسه إلى تاريخ عصره، ولم يعن بأحداثه بل تحوّل مؤرخا يسجل"[٣]؛ كما أنّ الحقّ يستدعي الصدق؛ فقد اتسمت سيرته بحرصه على تحري الصدق والصراحة والتواضع الخلقي، بمبعدة عن الزهوّ النفسي، كما

اتسمت سيرته بحظ عظيم من التجرد في النظرة والإنصاف في الحكم[٤]. ورغم صدقه وصراحته فإنّ حياءه الشديد "جعله يخفي كثيرا من جوانب حياته أو قل من جوانب نفسه"[٥]، كما أنّ تواضعه، ونبل أخلاقه، واتصال حياته بكثير من الأحياء؛ "جعله يتغاضى عن بعض ما يسيء إليهم، ويحذف ما لا تطاوعه نفسه على إثباته"[٦].

كتب أحمد أمين سيرته ليس احتفاء بماض زاخر بالإنجازات، بقدر ما كان يستشرف مستقبل أجيال قارئة لسيرة علمية ساهمت في رفد الثقافة المعرفية بمداد من العلم والمعرفة سيظل خالدا في سيرة الأمة؛ فالسيرة الذاتية "ليست مجرد سرد تسجيل حوادث وأخبار، وليست أيضا مجرد سرد لأعمال الكاتب وآثاره، ولكنها عمل فني ينتقي ويوازن، على النحو الذي يصور ذلك جميعا، في عمل أدبي يترك أثره المنشود على المتلقي"[٧]؛ فـ(فجر الإسلام وضحاه وظهره ويومه) وغيرها من المؤلفات الجليلة، قدّمت للباحثين بذاراً خصبة، يمكن استزراعها لتنبت علوما حديثة تحاكي روح العصر، وتنهض بنتاجات علمية تجدد ما كان آسنًا، وتحرّك ما كان جامدًا، فتدبّ الحياة من جديد عبر جسر متصل من الماضي إلى الحاضر؛ ليعبر المستقبل إلى فضاءات أكثر رحابة وأوسع مسالك، وهكذا تمضي السيرة الذاتية بوظيفتها المنشودة بحيث "تسهم في تحقيق الدينامية المجتمعية، حيث تتجه الشعوب نحو مستقبلها وتمضي في صنع هذا المستقبل بالتساؤل والارتياد والإنجاز"[٨].

فلا غروَ أنّ صاحب السيرة نجح في تحقيق ما ألزم به نفسه في كتابة سيرته بالتزامه الحياد والموضوعية، فالميثاق الغليظ الذي وضعه منهجا صارما جعل من سيرته تتسم بالتجرّد من التحيّز لنفسه، "فهو يذكر موقفه من الناس والحوادث، ولا ينساق مع غرور النفس وتعلّقها بذاتها، وحبّها لإعلاء شأنها، وتنقّصها من أقدار الآخرين"[٩]، وهكذا تمثّل سيرة أحمد أمين "تتويجا لكتابته التاريخية، تلك الكتابة التي تؤرخ للماضي لتجعل منه درسا وصورة حيّة وعبرة"[١٠] للحاضر والمستقبل.

ولكن المدخل الأهم في هذه السيرة، في تقديري، هو المدخل المتعلّق بتسليط الضوء على الحياة الثقافية؛ فمما لا شكّ فيه، أنّ هاجس التعلّم والتعليم يأتي في مقدمة الهواجس التي شغلتْ بال أحمد أمين في أعماله الأدبية، وخاصة في سيرته الذاتية الموسومة بـ "حياتي"، وهو الهاجس الذي يتجلى في جوانب عدة: الكُتّاب، والمدرسة الابتدائية،

والأزهر، ومدرسة القضاء، والجامعة. كذلك تناول في سيرته جوانب تعليمية أخرى من شأنها أن تقدّم للقارئ الحصيف ألوانًا أخرى من المعرفة منها: التواصل مع الآخر من خلال رحلاته المختلفة ومن خلال تعلّمه للّغات الأجنبية، كذلك من خلال مسيرته البحثية واضطلاعه بمهمة النشر والتأليف ردحًا طويلاً من حياته. وأخيرًا دعوته إلى شعبوية التعليم؛ لتصبح المعرفة زادًا لكل طبقات الشعب، وليخرج من عباءة الخاصة ومجالسهم الضيقة، إلى عالم رحب يحظى به كل إنسان مهما كانت ثقافته أو مهنته أو تكوينه بقدر معقول من الثقافة؛ وبهذا ينشأ مجتمع آخر يتسلح بالعلم والمعرفة؛ مما يهذّب طباعه، ويقوّم سلوكه، ويحقق له حياة أفضل. عند هذه المظاهر سنقف بشيء من التفصيل في الفقرات الآتية من هذه الدراسة.

أولاً: أنماط المؤسسات التعليمية.

إنّ القراءة المتأنية لسيرة أحمد أمين تجعلنا نقف على حقيقة لافتة تتمثل في المحتوى السردي الذي سيطر على السيرة في أغلب فصولها؛ فبالرغم من تناوله لبعض الحوادث العارضة في حياته من طفولته إلى شيخوخته، والتي جاءت استكمالا للبناء القصصي البسيط الذي انتهجه في حكي سيرته، إلا أنّ المتلقي ومن الفصول الأولى يلمح أنه بصدد قراءة مقالة أو مقالات تؤطر جوانب تعليمية، وترسم خطوطا متشابكة نحو تكوين علمي فريد من نوعه "فقد أسهب في وصف الدور الذي اضطلع به في الحياة الثقافية بعد أن اكتمل تكوينه الثقافي، فعدد الجوانب التي ترسم لنا في النهاية صورة واضحة القسمات لهذا الدور الذي شارك فيه في الحياة العلميّة"(١١). تناول أحمد أمين في سيرته خمسة أنماط تعليمية، وقد أسهب في التعريف بكل نمط ذاكرًا عيوبه ومزاياه - إن كانت له مزايا - وتلك الأنماط كانت سائدة في ذاك الزمان، وبعضها لا يزال قائما حتى الآن.

١- الكُتّاب

لعل (الكُتّاب) من أكثر الأنماط التعليمية التي نفر منها صاحب السيرة، فنعته بأسوأ الأوصاف وأقذعها، حتى أنه أشار إلى الألم الذي خلّفه في نفسه "ومن أجل هذا كان أكره شيء علينا الكُتّاب واسم الكُتّاب وسيدنا"(١٢)، فعصا (سيدنا) دائما تلاحقه حتى عندما يتناول طعامه مع عائلته. أما عن وصف الكُتّاب فقد استطاع صاحب السيرة أن يستقصي

صورة المكان وكأنه يصوّره تصويرا دقيقا بعدسة الفنان الذي لا يغفل عن أدقّ التفاصيل، فهو "حجرة متصلة بالمسجد، وبجانبها دورة مياهه، وأثاث هذه الحجرة حصير كبير بال، قد انسلت منه بعض عيدانه، وزير فيه ماء يكاد يسودّ من الوسخ، عليه غطاء من الخشب، قد ثبت في الغطاء حبل طويل رُبط فيه كوز ليستقي منه الشارب، ويتناول الكوز ليشرب منه النظيف والقذر والمريض والصحيح..."[١٣]، ثم يصف العصا الغليظة المعلقة على الحائط، وعود الجريد الطويل الذي يُمكّن (سيدنا) من ضرب من كان في أقصى الغرفة إن لم يهتزّ أثناء القراءة!

ويستمر أحمد أمين في وصف كتاتيب أخرى اختلف إليها أثناء رحلة دراسته بها والتي استمرت خمس سنوات، وقد تهكّم كثيرا من شخصية مُعلمها الذي كان يُطلق عليه (سيدنا): "وتنقلت في أربعة كتاتيب من هذا القبيل كلّها على هذه الصورة، لا تختلف إلا في أنّ الحجرة واسعة أو ضيقة، وأنّ سيدنا ليّن أو شديد، وأنّه أعمى العينين أو مفتوح العينين، أما أسلوب التعليم فواحد في الجميع"[١٤].

والحقيقة لا يجد القارئ ميزة إيجابية واحدة للكُتّاب، مما يشي بموقف صاحب السيرة من هذا النمط من التعليم، الذي لا يقدّم نفعا أو فائدة للمتعلمين؛ وربما كان له دور فاعل في تنفيرهم، بل نراه يصفه بالقبح: "ولكن ماذا تعمل هذه اللفتة القصيرة بجانب ما يغمرنا من قبح، في الحارة والشارع والكتاتيب وما فيها من منظر الحصير ومنظر سيدنا ومنظر الزير والمواجير"[١٥]، بل إنّ ذلك -كما يرى- ساهم في إماتة الشعور بالجمال، وإفساد الذوق العام!

إنّ كُتّابا بتلك الصفات سيكون له عظيم الأثر في نفور الناشئة من التعليم، وكرههم له، ولعلّ هذا ما يفسر انتشار الأمية والجهل في كثير من المجتمعات العربية قبل انتشار المدارس الأهلية والنظامية.

٢- المدرسة الابتدائية (مدرسة والدة عباس باشا الأول)

على الرغم من بُعد الفترة الزمانية التي نتناولها في السيرة، وهي أواخر القرن التاسع عشر (تقريبا ١٨٩٦) إلاّ أنّنا نقف أمام مدرسة لا تختلف كثيرا عن المدارس النظامية الحديثة التي نراها اليوم منتشرة في عالمنا العربي، فقد استهلّ أحمد أمين وصفه للمدرسة بوصف بنائها فقد "بُنيت على أفخم طراز وأجمله: أبهاء فسيحة فرشت بالمرمر وحلّيت سقوفها

بالنقوش المذهبة، وفي أعلى المدرسة من الخارج إطار كُتبت عليه آيات قرآنية كتبها أشهر الخطاطين بأحسن خط، ومُوهت بالذّهب"[١٦]. ويبدو أنّ هذا النمط من المدارس لم يكن منتشرا في الأقاليم المصرية، وربما كان مقصورا على طبقة محددة من طبقات المجتمع، ولعلّ أحمد أمين في تحفظه المعهود لم يشر إلى الطريقة التي مكّنته من الالتحاق بهذه المدرسة، ويمكننا أن نستخلص ذلك من خلال ما ذكره عن عمل والده في بعض الوظائف، وربما بعض صلاته مع علية القوم[١٧].

وعن النظام التعليمي الذي كان سائدا في تلك المدرسة، فإنه لا يختلف كثيرا عن مدراسنا الحديثة اليوم، فقد كانت في بداية عهدها تدرّس القرآن والحساب واللغة العربية واللغة التركية، ولكنها سرعان ما تطورت في مناهجها لتدرّس الجغرافيا والتاريخ والحساب واللغة الفرنسية واللغة الإنجليزية. ومن الواضح أنّ صاحب السيرة كان سعيداً بهذه المدرسة برغم تناقضات مدرسيها وطلابها؛ إلا أنها كانت بالنسبة له بديلا مناسبا عن التعليم الذي رآه مُتخلّفا في الكُتّاب، وقد مكث في هذه المدرسة أربع سنوات، ولكنه كان يخضع أثناء دراسته بها لمدرسة أخرى بيتية يُشرف عليها والده سنأتي عليها فيما بعد.

ومن اللافت في وصفه للمدرسة أنه ذكر الواجبات المنزلية التي كانت تُطلب من الطلبة، وقد كان يؤديها إضافة إلى البرنامج الدراسي الديني الذي كان والده يشرف عليه بنفسه في البيت. أمر تربوي آخر أشار إليه أحمد أمين يتجلى في الجوانب التعليمية الحياتية التي قدّمتها له هذه المدرسة، وقد وصف ذلك بقوله: "تعلّمت من المدرسة دروسها، وتعلّمت من التجارب أكثر من دروسها، فلعبي مع التلاميذ، ومبادلتي إياهم العواطف، ورؤيتي إياهم يتصرفون في الأمور تصرّفا مختلفا حسب مزاجهم وعقليتهم، يغضبون أو يحلمون، ويثورون أو يهدؤون،... كل هذه كانت دروسا في الحياة أكبر من دروس العلم"[١٨]. والمتأمل لذلك الوصف يقف على حقيقة هامة مفادها الدور الذي تضطلع به المدرسة في تنشئة الطلبة؛ فالمدرسة لا يقتصر دورها على التعليم وحسب، بل يمتد إلى تدريس مهارات الحياة المختلفة، وهذا ما نجده الآن في كثير من مؤسساتنا التعليمية الحديثة حيث تطرح موادا خاصة ضمن هذا السياق تُعنى بالمهارات الحياتية التي تنمي فكر الطالب، وتجعله قادرا على مواجهة الحياة، وفاعلا في مختلف جوانبها.

٣- الأزهر الشريف

يبدو أن الأزهر في تلك الحقبة من الزمان (أوائل القرن العشرين) كان قد استحوذ على سمعة علمية لا يطارحه فيها أحد؛ لذا فقد قرر والد أحمد أمين وبعد تردد ومشورة ومفاضلة بين التعليم الديني والتعليم المدني، أن ينقل ابنه من المدرسة المدنية إلى الأزهر الشريف، الذي يختلف في نظامه التعليمي اختلافًا بيّنًا عن المدارس الأهلية الأخرى المنتشرة قليلا في بعض الأقاليم المصرية، "ويبدو أنّ هذه الحيرة من والد أحمد أمين تجاه ابنه، هو أن الوالد كان متحيرا في مستقبله، هل يوجهه إلى الجهة الدينية فيعيده إلى الأزهر، أم يوجهه الوجهة المدنيّة فيعلّمه في المدرسة الابتدائية والثانوية"[١٩] وذلك يعكس مدى اهتمام والده بنوعية التعليم التي يراها مناسبة لولده، وكذا بالمستقبل الذي يريده لابنه.

دخل صاحبنا الأزهر وهو في سن الرابعة عشرة، وكان ذلك على التقدير عام (١٩٠٠)، ولم تختلف مشاعر الكره للمؤسستين؛ إلا أن كرهه للكُتّاب كانت تتحكم به مشاعر الطفل الصغير الذي لم يرق له غلظة (سيدنا) وسوء تعامله مع الأطفال، وعدم اتّباعه لأي أسلوب تربوي يجذب الأطفال إليه ويحببهم في التعليم. أما كرهه للأزهر وهو في سن الرابعة عشرة فقد كان نتيجة إعمال عقله، فهو ليس ذاك الطفل الذي تتحكم به مشاعره وعواطفه، وإنّما هو الآن فتى يافع يستطع أن يحكم ويقيّم وينتقد، وإن كان من غير المسموح له أن يعبّر عن رأيه، أو يخالف ما رسمه له والده؛ لذا فقد كان يعقد مقارنة بين الأزهر وبين مدرسته السابقة (أم عباس)، "وقارنت بين حصير الأزهر ومقاعد المدرسة، ومُدرس الأزهر ومُدرس المدرسة، وفناء الأزهر حيث يُشمّس الخبز وفناء المدرسة حيث نلعب ونمرح، فكانت مقارنة حزينة"[٢٠]؛ ليصل إلى نتيجة مؤداها "أن الأزهر امتداد للكُتّاب لا امتداد للمدرسة"[٢١].

وما لفت انتباهه في الأزهر أنّ نظامه التعليمي فضفاض لا يسير على خطة واضحة من شأنها أن تُكوّن طالب العلم، وتنوّع معارفه، فبعد أن يُقيّد الطالب في دفتر الأزهر يُترك وشأنه يختار ما يشاء من علوم، وإن لم يُرزق بمرشد يساعده في اختيار الدروس والأساتذة سيغرق في بحر العلوم، ولن يهتدي أبدا إلى مرفأ الأمان، فلا رقيب أو حسيب، يصف أحمد أمين تلك الحالة: "وليس يُعرف أحد أغاب أم حضر، تقدّم في العلم أم تأخر، وليس يمتحن آخر العام فيما درس، ولا يسأله أحد ماذا صنع"[٢٢]. ثم يتهكم على نظام الأزهر التعليمي

في منحه الشهادات للطلاب دون أدنى تدقيق لحضورهم أو اجتيازهم مراحل محددة في التعليم، "فإنّ احتاج الطالب في شأن من الشؤون أن يأخذ شهادة بأنه حضر الكتب الفلانية على المشايخ الفلانيين فما عليه إلا أن يكتب الورقة كما يشاء وبالكتب التي يشاء وبالمدرسين الذين يشاء، ثم يمرّ عليهم فيوقعونها في سهولة ويسر، ولو كانت هذه أول نظرة من المدرسين للطالب... وبارك الله فيمن نفّع"(٢٣).

تلك صورة مظلمة قدّمها أحمد أمين لأسلوب الدراسة في الأزهر الشريف، فلا خطط تعليمية، ولا تدقيق على حضور الطلاب وانصرافهم، والطالب وحده المسؤول عن الدروس التي سيحضرها، وربما يقضي الطالب سني عمره قبل أن يتخرج من هذه المؤسسة التعليمية. وفي إشارة إلى المناهج التي كان يتمسك بها أساتذة الأزهر فقد ذكر أحمد أمين غير مرة (الكتب الصفراء) إشارة منه إلى قِدم المراجع التي يعتمدون عليها في تدريس علومهم، وأنّ جلّهم قصر علمه على النقل من الأقدمين عبر كتبهم القديمة، وكأنّ الزمان توقف ولم تعد الأمة قادرة أن تنتج علما يناسب عصرنا، أو يخالف بعض ما جاء به الأقدمون.

أيضا وقف أحمد أمين عند أسلوب الأساتذة واستطراداتهم الكثيرة في شرح التعليقات والاعتراضات والحواشي؛ مما يشتت الطالب ويصرفه عن الانتباه والتركيز، وقد وصف أحد الأساتذة بقوله: "قرأ المتن والشرح ففهمتهما ولكنه سبح بعد ذلك في تعليقات واعتراضات على العبارة وإجابات على الاعتراضات لم أفهم منها شيئا. وبعد أن أحضرت كل ذهني ووجهت إليه كل انتباهي لم أفهم أيضا، فشرد ذهني..."(٢٤). أما وصفه لبعض أساتذة الأزهر، فقد كان لا يخلو من التهكم اللطيف الذي يتناسب مع شخصيته الحيية التي لا تجنح إلى التجريح، فقد وصف أستاذ النحو الذي يكثر من الاستطرادات بأنه كثير الفخر بنفسه "فساعته التي يضعها في جيبه، لم يُصنع منها إلا ساعتان إحداهما التي في جيبه، والأخرى مع إمبراطور ألمانيا، وفي بيته آلاف من الكتب، بعضها مجلد بالماس، وله ساعات طويلة يقضيها سرّا مع الخديوي عباس يتحدثان فيها عن أهم شؤون الدولة"(٢٥)، كما أنّه لا يمضي في سخريته إلى مدى بعيد؛ "لأن طبيعته التي يعكسها في ترجمته الذاتية ليست طبيعة ثورية متمردة ساخرة"(٢٦) وهذا يعكس التربية الصارمة التي أخضعه لها والده.

كما أشار أحمد أمين إلى العلاقة بين أساتذة الأزهر والطلبة، وبين الطلبة أنفسهم، فقد

جاء في وصفه "وزاد الأمر سوءا أن ليس بيني وبين الطلبة صلة، ولا بيني وبين الأساتذة رابطة، ولا أتلقى سؤالا إن كنت فهمت أم لم أفهم، ولا أكلّف واجبا أعمله في بيتي"(٢٧)، فالعلاقة بين الطالب والأستاذ في الأزهر علاقة احترام تصل حد التقديس، فقد ذكر صاحب السيرة تقبيل الطلبة ليد الأستاذ الشيخ بعد نهاية الدرس، كما أنّ اختلاف أعمار الطلبة الذين يحضرون الدرس نتج عنه انقطاع الصلات والروابط فيما بينهم؛ مما سيؤثر -بلاشك - على تحصيل الطالب وتكوينه.

إزاء ذلك النظام التعليمي البغيض إلى قلبه ونفسه فقد حاول أن ينفكّ منه بشتى الطرق، فمرة يُقدّم طلبا للعمل بوظيفية أستاذ للغة العربية في المدارس الأهلية الخيرية (الجمعية الخيرية الإسلامية)، فينتقل إلى طنطا هربا من الأزهر، ولكنه لا يطيق الوحدة وتكاليف الحياة، فما زال عوده غضا، فيعود مُكرها إلى الأزهر، ثم يبحث عن فرصة أخرى في دار العلوم، ولكنه يفشل في الفحص الطبي لقصر في النظر لازمه طيلة حياته، وأخيرا يجد الحل في العمل مدرسا بالإسكندرية بعيدا عن أهله كي يجد خلاصا من واقع تعليمي أرهقه كثيرا ولم يستفد منه إلا النزر اليسير.

لقد كان حلمه أن يلتحق بنظام تعليمي واضح المعالم ليس كالأزهر عائما، واضحا بخطته التعليمية، وبنظام اختباراته، وعدد سنوات دراسته، وبما سيصبح عليه الطالب بعد تخرجه، وقد عبّر عن ذلك بقوله: "حلمت إذ ذاك أن ألتحق بمدرسة نظامية واضحة المعالم، مفهومة الغاية، يدخل فيها الطالب فيقضي أربع سنوات يتعلّم فيها على خير الأساتذة، ثم يخرج مُدرسا في المدارس الأميرية"(٢٨).

٤- مدرسة القضاء:

بعد أن قضى أحمد أمين سنتين مُدرسا في الإسكندرية (١٩٠٤ – ١٩٠٦) سعى له والده للعمل أستاذا في مدرسته الابتدائية الأولى (أم عباس) حيث عمل بها أستاذا سنة واحدة. وفي العام ١٩٠٧ تم افتتاح مدرسة القضاء الشرعي التي كانت تهدف إلى تخريج قضاة شرعيين متسلحين بالعلم والمعرفة، وعلى اتصال بمختلف معارف العصر وعلومه.

تمكّن أحمد أمين من الالتحاق بمدرسة القضاء واجتياز اختبارات القبول، بعد معاناة مريرة لرسوبه في الفحص الطبي، ولكن تشاء الأقدار أن يتجاوز ناظر المدرسة عن نتيجة

الفحص الطبي؛ لكثرة الراسبين في اختبارات القبول، ولتأخذ سيرته منحى آخر؛ فقد استمرت صلته بهذه المدرسة طالبا ومُدرّسا مدة خمسة عشر عاما (١٩٠٧ – ١٩٢٢).

لذلك سنجد أنّ مدرسة القضاء الشرعي قد احتلت مساحة واسعة في سيرة أحمد أمين، وقد بسط القول في عرض كثير من مناهجها التعليمية وأساليب التدريس فيها، إضافة إلى التنوّع الثقافي الذي أراده القائمون على المدرسة؛ بغية تكوين الطلاب من شتى المشارب، وليتسلحوا بالقديم والجديد على حدّ سواء، وقد وصف أحمد أمين منهاج المدرسة بقوله: "كانت الفكرة في مدرسة القضاء أن يثقف فيها الطالب ثقافة دينية، من تفسير وحديث وفقه وتوحيد ونحو ذلك، وثقافة لغوية أدبية من نحو وصرف وأدب، وثقافة قانونية عصرية، من مثل أصول القوانين الحديثة ونظام القضاء والإدارة ونحو ذلك. وثقافة يسمونها عصرية، من مثل الجغرافيا والتاريخ والطبيعة والكيمياء والحساب والجبر والهندسة. فكان برنامجها مزيجا من كل ذلك"(٢٩).

إنّ المتأمل لمنهاج مدرسة القضاء سيجدها تضاهي أرقى الجامعات في عصرنا هذا، وربما تفوقها في بعض المجالات، ولو قارنّا بين خطتها الدراسية والخطط الدراسية لبرامج الدراسات القضائية في مختلف جامعتنا اليوم لوجدناها لا تقل عنها أو ربما تفوقها؛ فالطالب في مدرسة القضاء بعد أن يتم متطلبات النجاح ويصبح قاضيا سيكون متسلحا بكل ما يحتاجه من علوم لممارسة مهنة القضاء، فالقاضي يحتاج إلى علوم الطبيعية والحساب والهندسة حاجته إلى العلوم القانونية، وكذا حاجته إلى علوم اللغة التي هي أساس لمن أراد أن يمارس القضاء. حقّا لقد كانت مدرسة القضاء في مطلع القرن العشرين مفخرة للكليات الجامعية؛ مما ينبئ عن التطور الذي كان عليه النظام التعليمي في مصر آنذاك في هذا الجانب، ولكنه تطور محدود ونوعي لا يتجاوز بضع مؤسسات تعليمية، كما أنه لم يكن متوافرا لكل طبقات المجتمع، بل كان مقصورا على فئات محدودة، كما أنّ عدد الطلاب في مدرسة القضاء كان محدودا جدا.

أما عن الملامح التربوية التي انمازت بها مدرسة القضاء، فقد أفاض صاحب السيرة في وصف تلك الملامح، ولعلّه بدأ بذكر أبرزها والذي يتجلّى بقسوة النظام التعليمي، فهو نظام شاق وعنيف، "فليس هناك ملاحق، وليس هناك إعادة سنة فمن رسب في أول امتحان آخر

السنة رُفد (طُرِدَ)، وفي كلّ ثلاثة أشهر امتحان، ومن رسب في هذا الامتحان الثلاثي حرم من مكافآته"(٣٠).

ومن الملامح النافعة التي ذكرها أحمد أمين تشجيع الطلبة على القراءة أثناء الإجازات ومنح مكافآت للطلبة تقديرا على ذلك "وقسم يُمنح مكافآت على كتب تُقرأ أثناء الإجازة، مثل مقصورة ابن دريد وشرحها ومختصر صبح الأعشى"(٣١). ومن اللافت في مدرسة القضاء تخصيص يوم للمحاضرات العامة التي يقدّمها خيرة المثقفين في مصر من أمثال: سعد زغلول، أو الشيخ الخضري، وقد يكون المحاضر من أساتذة المدرسة، وأحيانا يُكلّف بعض طلبتها المُبَرَّزين، وقد وصف أحمد أمين تلك الأجواء الثقافية بقوله: "وكلّ يوم ثلاثاء عصرا تصفّ الكراسي في فناء المدرسة ويُدعى أستاذ من الخارج أو طالب من المتقدمين لإلقاء محاضرة في موضوع أعدّه"(٣٢). حقّا إن نظام تلك المدرسة تفوّق على كثير من أنظمة عصرنا التعليمية!

واللافت أيضا، في هذه المدرسة شخصية مديرها (عاطف بك بركات) الذي كان يُشجّع الطلبة على إعمال العقل من خلال طرحه بعض المواضيع الجدلية التي تشحذ عقول الطلبة وتستفزهم للقراءة والبحث في موضوعات فكرية مختلفة، يصف ذلك أحمد أمين: "ويتحين عاطف بك بركات فرصة الفسحة أو فرصة وجود بعض الطلبة في المكتبة فيقف ويلتف حوله ما شاء من الطلبة، فيخلق موضوعا يحاورهم فيه ويحاورنه؛ ويتشعب الموضوع، ويطول الجدل حتى يدق الجرس"(٣٣)، فأين مدراء اليوم وعمداء الكليات من الاحتكاك بالطلبة؟ فجلّهم قابع في مكاتب محصّنة لا يُسمح بالولوج إليها!

ومن الملامح التي أوردها أحمد أمين في وصفه للمدرسة المنافسة الشديدة بين الطلبة، فالأجواء العلميّة وحياة الجدّ تخلق تلك الأجواء التي تحفّز الطلبة، لا سيما وأنّ المكافآت المجزية التي تنتظر الطلبة من شأنها أن تشحذ هممهم وأن تجعل الأجواء محتدمة، فكلّ واحد يطمح أن يظفر بها. وقد خلّف تأخر أحمد أمين في بعض المباحث عن أحد منافسيه حزنا شديدا، ولنستمع إلى صاحب السيرة يروي لنا حزنه: "وزاد من تعبي ما أصبت به من الغيرة، وكنا اثنين في الفصل كفرسي رهان نتسابق من غير كلل، وكان خيرا مني في العلوم الأزهرية وأنا خير منه في العلوم العصرية، فسبقني في السنتين الأوليين وسبقته في السنتين

الأخريين، وكان إذا سبقني حزنت حزنا عميقا، وإذا خلوت إلى نفسي فرّ الدمع من عيني، فما لقيته من هذا الزميل في السباق كان أشدّ على نفسي مما لقيته من المدرسة وما فيها من عناء"(٣٤). فكم من طلبة اليوم من تفرّ الدموع من عينيه لتقصيره في مبحث من المباحث؟ وكم من طلبة اليوم تشغله منافسة أقرانه في تحصيل العلوم؟!

٥- مدرسة المنزل

الحقيقة أنّ هذه المدرسة كانت ممتدة منذ دخوله المدرسة الابتدائية مرورا بالأزهر، وربما استمرت بعض الوقت أثناء دراسته في مدرسة القضاء، وقد كان لهذه المدرسة التي كان والده رائدها وأستاذها الأوحد عظيم الأثر في تكوينه العلمي والمعرفي؛ ولعلّ أحمد أمين حينما يذكر أثر هذه المدرسة عليه، إنما يلفت قُرَّاءَه إلى قضية هامة تتجلى في أثر التنشئة الأسرية واهتمام الأبوين في تكوين الطالب؛ فمهما كان النظام التعليمي الذي يتبع له الطالب فلا غنى له عن متابعة الأهل وتعزيز أوجه القصور في نظم التعليم المختلفة، ومن ثم نجد صاحب السيرة يفصّل القول غير مرة وفي غير موقع من السيرة للحديث عن تلك المدرسة العظيمة التي غيّرت حياته، وجعلته يتفوّق في كثير من الاختبارات التي تعرّض لها، سواء في التقدّم لوظيفة أستاذ أو للالتحاق ببعض المؤسسات التعليمة.

بدأت مدرسة المنزل تأخذ شكلا منهجيا عندما كان أحمد أمين طالبا في المدرسة الابتدائية (١٨٩٦ -١٩٠٠م) حيث وضع له والده برنامجا وصفه صاحب السيرة بالمرهق، وتعجّبه من نفسه كيف استطاع تحمّله، حيث يبدأ البرنامج من صلاة الفجر بقراءة جزء من القرآن، ثم حفظ أحد المتون الأزهرية كألفية ابن مالك، وبعد المغرب يستمع إلى درس يلقيه والده في المسجد، وفي طريق عودتهما إلى البيت يُحفّظه والده بيتا من الشعر ثم يسأله عن إعرابه، وفي هذا النظام لا يوجد أوقات للراحة إلا ما ندر.

وحينما انتقل إلى الأزهر نجد الوالد يُكثّف من دروسه المنزلية، ويضع منهاجا آخر يتلاءم مع سنّه ومرحلته الدراسية، وقد وصف أحمد أمين ملامح ذلك المنهج بقوله: "فرتّب لي دروسا في النحو، واختار لي من كتبه طبعات ليس عليها حواش حتى لا يشتت ذهني فيها... وشرح لي بعض مقامات الحريري في الأدب، وليست دراسة اللغة والأدب مما يُعنى به الأزهر، ولكن عُني بها أبي،... وقرأ لي كتابا في المنطق وكتابا في التوحيد، فكان هذا كله

في الحقيقة أساس ثقافتي"[٣٥].

لقد انتقد أحمد أمين أسلوب الأزهر في التدريس من خلال وصفه لأسلوب والده، يقول: "والحق أن أبي كان يمتاز على كثير من شيوخ الأزهر بأشياء كثيرة، كان واضح العبارة قادرا على الإفهام من أقصر الطرق. وكان يرى في الحواشي والتقارير مضيعة للوقت"[٣٦] وفي لفتة من صاحب السيرة إذ ينسب أسلوب والده المختلف عن شيوخ الأزهر مع أزهريته، إلى تأثّره بأسلوب التدريس بالمدارس الأميرية (الحكومية) "ولعله استفاد ذلك من تدريسه ببعض المدراس الأميرية واتصاله بأساتذتها"[٣٧]. وهكذا لا يفتأ صاحبنا يوجه سهام نقده لأسلوب التدريس في الأزهر في كلّ موقف يتحدث فيه عن نظام تعليمي آخر، ومن الواضح أنه لم يكن يرى في طريقة الأزهر ومنهجه نفعا لطالب العلم في أي علم من العلوم.

٦- مرحلة الجامعة

إن كان أحمد أمين قد وصف الأنظمة التعليمية السابقة (الكُتّاب والمدرسة الابتدائية، والأزهر، ومدرسة القضاء) من منظور الطالب، فإنه الآن سيقدم لقرّائه وصفا آخر لنمط تعليمي لم يعهده من قبل "لا هو كالأزهر ولا هو كمدرسة القضاء، أساتذة كأنهم عُصبة أمم، هذا إنجليزي وهذا فرنسي وهذا بلجيكي وهذا ألماني وقليل من الأساتذة المصريين"[٣٨].

استطاع أحمد أمين أن يصف بدقة بالغة نظام التعليم الجامعي، وأن يحدد أبرز الميزات التي ينماز بها عن التعليم المدرسي، فالجامعة أساسها البحث، والطالب يقرأ ما في الكتب ليستخرج منها جديدا يبحث فيه. وإن كانت المدرسة تعلّم آخر ما وصل إليه العلم، فإن الجامعة تسعى إلى اكتشاف المجهول من العلم، ولا تقف عند ذلك وحسب؛ بل تنقد ذلك الجديد، وتعدّله، وتحلّ جديدا مكان القديم، وتهدم رأيا وتبني آخر جديدا مكانه، "هذه وظيفتها الأولى والأخيرة، فإن لم تقم بها كانت مدرسة لا جامعة" [٣٩].

تلك رسالة الجامعة التي فهمهما صاحب السيرة، وتعلّمها مما كان يسمعه ويشاهده من زملائه الأجانب وبعض المصريين الذين يقتفون منهجهم؛ فقد كان يشاهد إنجازات الأساتذة والمستشرقين، من بحوث تتميز بالجدة في مختلف المعارف والعلوم. ومن ثم فقد حرّكت فيه تلك الأجواء العلمية روح البحث، وأوقدت شعلته في نفسه، فراح يفكّر في بحوث مبتكرة

تخدّم الأمة، ويكون نفعها للأجيال القادمة، وقد تحقق له ذلك بعد سنتين من التحاقه بالجامعة، فأصدر أول مُصنّف عن التاريخ الإسلامي أطلق عليه (فجر الإسلام)، وقد عُدّ الكتاب في زمانه إنجازا علميا لم يسبقه إليه أحد من الباحثين؛ فكان أول مصنّف يُعقلن جانبا من تاريخنا الإسلامي.

واستمرت مسيرته البحثية أثناء عمله في الجامعة، فأخرج مُصنّفا آخر أطلق عليه (ضحى الإسلام)، وهو امتداد زماني لمصنفه السابق. كما أن جهوده البحثية لم تقتصر على الإسلاميات وحسب، وإنّما تنوعت في الأدب والنقد، فقد درس طبقات ابن سلام للجمحي، وطبقات الشعراء لابن قتيبة، وشارك في تحقيق العقد الفريد لابن عبد ربه، والإمتاع والمؤانسة للتوحيدي، كما وظّف ثقافته الغربية ومعرفته باللغة الإنجليزية في إصدار كتاب آخر في النقد الأدبي.

وعن مسيرته الإدارية في الجامعة، فقد قدّم لنا أحمد أمين الكثير من الجوانب التعليمية التي يحتاجها كل أستاذ عامل في المجالس العلمية والأكاديمية، ويتضح ذلك في سلوكه المهني الذي انتهجه طيلة قيامه بالعمل الإداري، وأبرز ما يلفت انتباهنا مسألة أدب الخلاف وفنّه، ولباقة الطرح، وعدم التعصّب، وقد عبّر عن ذلك بقوله: "إنّ كثيرا من الناس يتضايقون من المعارض وقد يحاولون إيذاءه والتنكيل به، ولكنهم إذا تيقنوا أنه إنما يدافع عمّا يعتقد، وأنّه إذا دافع بأدب، وفي لياقة ولباقة، من غير أن يمس شعورهم وكرامتهم كان موضع الاحترام والإجلال والكرامة من مؤيديه وخصومه معا"(٤٠).

وفي عام ١٩٣٩ عُيّن عميدا لكلية الآداب، وهو من المناصب الرفيعة في جامعة ناشئة، تأخذ طريقها في التمصّر وتوطين وظائفها الإدارية بنخبة من المصريين المتميزين، وبعد أن فصّل القول في المتاعب التي واجهها أثناء إدارته للكلية، وكيف كان تأثيرها السلبي على الجانب البحثي، نجده يعرض لقرّائه منهجه الأكاديمي في تحسين العملية التعلمية، وذلك من خلال ثلاث قضايا: (١) تنظيم الحياة الاجتماعية في الكلية من خلال بعض الأنشطة الترفيهية، وتوثيق صلة الطلبة بمدرسيهم. (٢) تحسين العلاقة بين الأساتذة والطلبة من ناحية الإشراف الخُلقي، بحيث يشرف كلّ أستاذ على مجموعة من الطلبة إشرافا أبويا. (٣) محاربة طريقة الإملاء التي يتبعها بعض الأساتذة في محاضراتهم، وكأنّ المحاضرات دروس إملاء،

والانتقال إلى تحديد المراجع المفيدة للطلبة بحيث يتفرغ الأستاذ للشرح والتحليل [٤١].

يعترف أحمد أمين بأنه لم ينجح في تحقيق تلك الرؤى التربوية، ولكنها تبقى ماثلة في سيرته لمن أراد أن يأخذ بنصيب منها. ولعلّ أغلب مناهج التدريس الحديثة تحثّ على اتباع تلك الرؤى التي تضيف كثيرا إلى الحياة الجامعية وتجعلها أكثر نفعا وفائدة لأجيال المتعلمين.

ثانياً: منهجية البحث عند أحمد أمين

كشف أحمد أمين في سيرته عن منهجيته في البحث، وذلك من خلال حديثه عن تأليف كتابيه الجليلين (فجر الإسلام) و(ضحى الإسلام)، واللافت أنه تحدّث عن التطور المنهجي الذي أصابه في كلّ مرحلة من مراحل إعداد الكتابين.

يصف منهجه الذي رسمه في إعداد كتابه (فجر الإسلام): "فأخذت أحضّر الجزء الأول الذي سمي بعد (فجر الإسلام)، وصرفت فيه ما يقرب من سنتين فرسمت منهجه ورتبت موضوعاته، وكنت إذا وصلت إلى موضوع أجمع مظانّه في الكتب، وأقرأ فيه ما كتب على الموضوع وأمعن النظر، ثم أكتبه مستدلا بالنصوص التي عثرت عليها حتى أفرغ منه، وأنتقل إلى الموضوع الذي بعده وهكذا"[٤٢].

في تلك الفقرة القصيرة يوضح صاحب السيرة أساليب البحث العلمي، فالمشاريع البحثية تبدأ بالفكرة ثم الخطة المُحكَمَة، تليها القراءات الكثيرة حول محاور الموضوع، ثم تراتبية معالجة المحاور، فإذا وصل إلى موضوع من الموضوعات بدأ بجمع مظانّه من المراجع المختلفة، ثم تأتي مرحلة التحليل والتدقيق (وأمعن النظر)، فلا يجوز للباحث أن يأخذ كلّ ما يقرأ فلا بدّ من التمحيص والتدقيق. أمر آخر لافت في منهجه البحثي أنه لا يبدأ في محور إلا بعد الانتهاء من محور سابق. ومن المفيد هنا أيضا أن نشير إلى جدية الباحث ومواصلته العمل، والإخلاص له، يقول: "وأبدأ العمل في الساعة الثامنة صباحا وأجلس على كرسي أمام الكتب أقلّبها وأستخرج نصوصها وأستخلص من كلّ ذلك ما أكتبه إلى الساعة الواحدة، جلسة واحدة أنسى فيها نفسي وأنسى كلّ شيء حولي"[٤٣].

وفي حديثه عن منهجه في إعداد كتاب (ضحى الإسلام) نراه يفصّل كثيرا في الحديث عن ذلك المنهج، بل يصف التطور الذي أصابه والخبرة المتراكمة التي تحصّل عليها، وفي

وصفه لمنهجه يقول: "فقد رتبت موضوعاته التي تستغرق ثلاثة أجزاء وأحضرت ملفات كتبت على كل ملف اسم الموضوع،... ثم أحضرت أمهات الكتب التي تبحث في هذه الموضوعات كالأغاني والحيوان للجاحظ وكتب ابن قتيبة ورسائل الجاحظ وكتب ابن المقفع ونحو ذلك أقرؤها كلّها فإذا وصلت إلى نص يتعلق بالمعتزلة كتبت في ورقة صغيرة مغزى النص ورقم الصفحة في الكتاب ووضعتها في ملف الموضوع، وهكذا حتى أفرغ من هذه الكتب كلها، وهذا دور التحضير، فإذا جاء دور الكتابة استخرجت ملف الموضوع وأعدت النظر في الجذاذات ورتبتها حسب الترتيب المنطقي وفكّرت فيها وبدأت أكتب، وكلما عنّت فكرة جديدة رجعت إليها في مظانها، حتى ينتهي الموضوع، فأنتقل إلى ما بعده وهكذا"(٤٤).

لقد حرص الباحث على نقل الفقرة كاملة كما جاءت في سيرة أحمد أمين؛ لأنها تعدّ – بحق- أنموذجا دقيقا للمنهج البحثي الدقيق الدي يقود الباحث إلى الجدّة والدّقة والخروج بالنتائج المرجوّة. وتتلخص منهجيته في البحث في ثلاث مراحل: الأولى، التخطيط؛ فإعداد خطة مُحكمة من أهم الأسس التي تكفل نجاح الباحث في إعداد مشروعه البحثي، ذلك أنه يبحث على بصيرة وهدى، فقد قسّم أحمد أمين موضوع مشروعه إلى أقسام فرعية، وخصص لكل قسم ملفا خاصا به، ليكون الوعاء الذي يحفظ فيه كل ما يجده عن الموضوع في مظانّه المختلفة. المرحلة الثانية: التحضير، وهي من أهم المراحل التي تُغني الباحث، فكما أشار أحمد أمين في سيرته أنّه كان يحضّر أمهات الكتب ذات الصلة بموضوعاته التي حددها سلفا في المرحلة الأولى، ومن ثم يبدأ في سبر أغوار تلك المراجع إلى أن يجد ضالته فيكتب في بطاقة مغزى الموضوع الفرعي ورقم الصفحة ومن ثم يضعها في الملف الخاص بها، وهكذا يفعل إلى أن يغطي محاور موضوعاته كافة. المرحلة الثالثة: مرحلة التنفيذ (الكتابة)، وهي مرحلة دقيقة لأنها تستوجب إعادة النظر بكل الجذاذات (البطاقات) التي استخرجها سابقا، وقد يدفعه البحث إلى إعادة القراءة مرة أخرى، كما أشار إلى مسألة هامة في البحث وهي الترتيب المنطقي لتلك الجذاذات والتفكير بما تحمل من أفكار، وهكذا يفعل مع كل محور من محاور مشروعه، فلا يبدأ في محور آخر قبل أن ينتهي من المحور السابق.

إنّه نظام دقيق يعكس فكرا منظما؛ فالبحث عنده أشبه ببناء يُشيّده بأدق التفاصيل؛ ليخرج شامخا راسخا مُدعّما بأمتن دعائم البنيان، وهكذا كانت أغلب مشاريعه البحثية في

التاريخ والأدب والنقد، وقد وصف منهجه الكاتب الكبير محمود تيمور بأنه "إذا عنّت له فكرة رسمها في ذهنه أدقّ رسم، وجعل لها خطة محكمة وقدّر لها كل ما عساه يكون من أقدار، ولا يكاد يمدّ يده ليضع الحجر الأساس لهذه الفكرة، حتى يكون قد استوثق من الأمر غاية الاستيثاق، وأحاطه بما يكفل له الرسوخ والشموخ، فإذا بالبنيان تعلو دعائمه، وإذا هو حصن للقرائح والعقول"(٤٥).

ثالثاً: الآخر في فكر أحمد أمين

لقد اختطّ أحمد أمين لنفسه في تعامله مع الآخر مبدأ ظاهره بسيط وجوهره عميق يعكس روح صاحبه ومنهجه، فالمبدأ الذي انتهجه أنّ "الشيء لا تمكن معرفته معرفة حقّة إلاّ بالمقارنة، فالأبيض إنما يعرف بياضه بمقارنته بالأسود والأخضر والأصفر، والأمة لا يعرف أنها متأخرة إلا بقياسها بأخرى متقدمة"(٤٦)، فحتى يتعرّف إلى الآخر فلا بدّ من الاحتكاك به، والاتصال معه، ومعرفة جوانب تقدمه، وجوانب قصوره، ومن ثم إجراء المقارنات التي من شأنها إحداث المثاقفة الإيجابية بعيدا عن التعصب لهذا أو ذاك، وبما ينسجم مع الثقافة المحلية.

كانت أولى رحلات أحمد أمين إلى (الآستانة) وذلك في العام ١٩٢٨م لمصاحبة أحد الباشوات المهتمين بالبحث عن كتب الجغرافيا القديمة، فالرحلة في أساسها رحلة علمية، ولكنها ستأخذ منحى آخر في فكر صاحب السيرة، وسيوظفها لعقد مقارنات بين ثقافتين: الثقافة المصرية والثقافة التركية الحديثة المتحررة من الخلافة الإسلامية، والتي تتخذ من العلمانية نهجا سياسيا وأيدولوجيا غيّر كثيرا من المفاهيم المتراكمة لدى الأمة التركية.

ما يهمنا في الرحلة الانطباعات التي سجّلها أحمد أمين عن تركيا والأتراك، وأهمها خُلقان لطيفان: نظافتهم وهدوؤهم، "فأما النظافة فقد تدخل بيت الفقير الذي يعيش أكثر أيامه على البقول الجافة فتراه قد فرش فرشا بسيطا ولكنّه نظيف، وقد تفرش الحجرة بالحصير، ولكن لا يسمح التركي لنفسه ولا لضيفه أن يدوس بنعله... وأما هدوؤهم فقد أمضينا أربعين يوما لم نجد فيها نزاعا في شارع أو خصاما في ترام..." (٤٧). وفي موطن آخر وصف إحدى رحلاته إلى ضواحي الآستانة، وقد راعه الأسواق النظيفة وهيئة الأطفال والرجال، يقول: "فنجد سوقا نظيفا فيه ما يحتاج الإنسان من فاكهة نظيفة وفطائر وبقول

ونحو ذلك، الأطفال الصغار والرجال الكبار في غاية النظافة، وأكثر المبيعات تعرض من الداخل، فالجزار مثلا لحمه في داخل دكانه"(٤٨).

الحقيقة أن ما أعجبه من أخلاق في الأتراك، هو نقد خفي لمجتمعه، وكأني بأحمد أمين يريد من خلال ذلك الوصف أن يقدم جانبا تعليميا في دعوته إلى الاقتفاء بتلك الأخلاق الكريمة التي ترفع من قيمة المجتمع، وتزيد في تماسكه، وتحسّن طباعه. ومما يدلّل على ذلك برمه مما يراه في المجتمع المصري من مآخذ، حيث يصفها "فبلدنا حرمت هذا الهدوء في القهوة وفي الشارع وفي الترام وفي كل مجتمع حتى في البيت"(٤٩).

كما عرض أحمد أمين بشيء من التفصيل إلى مظاهر الانقلاب الذي حدث في تركيا، فتناول وضع المرأة والتعليم ونظام الحكم، والنظام الاجتماعي الجديد، وغيرها من المظاهر، ولكن اللافت تلك النظرة العقلانية التي ختم بها ذاك الوصف والمتمثلة بقوله: "هذا أهم مظاهر الانقلاب الذي حدث في تركيا؛ والذي أردت أن أفهم أثره وأطيل التفكير به، أيها يصلح لمصر وأيها لا يصلح، وهل تستطيع أن تسير في هذا الإصلاح إلى آخر الخطوات أم لا؟"(٥٠). وهذا جانب تعليمي في غاية الأهمية يقدّمه لنا أحمد أمين، فهل نظم الدول الأخرى شرقية كانت أم غربية يمكن أن تكون صالحة لمجتمعاتنا العربية؟ وهل يمكن نقل تجارب الآخرين كما هي دون تصفيتها وتنقيتها بما ينسجم مع خصوصيتنا الثقافية؟ تلك النظرة العقلانية التي أراد إرساءها؛ فالأمر يحتاج إلى كثير من التأمل والتدبر، وصولا إلى الإصلاح المنشود الذي يبتغيه لوطنه.

أما رحلته الأهم فكانت عام ١٩٣٢م عندما اختير عضوا في مؤتمر المستشرقين الذي ينعقد في ليدن بهولندا، وكانت البحوث المقدمة للمؤتمر في الإسلاميات والأدب العربي والهنديات والصينيات، وكان بحث أحمد أمين عن (نشأة المعتزلة) وكان مدير الجلسة الأستاذ الشهير (مرجوليوث) الذي طلب منه أن يقدّم بحثه باللغة الإنجليزية، وقد فعل ذلك على كره شديد منه؛ فقد كان تعلّمه للإنجليزية بهدف قراءة المصادر الإنجليزية وفهم محتواها، وترجمة بعضها إلى اللغة العربية، ولم يكن يفكّر في يوم ما أنه سيتحدث بها أمام جمهور من المثقفين.

بدأ أحمد أمين رحلته إلى ليدن قبل موعد انعقاد المؤتمر بشهرين زار خلالها فرنسا

وإنجلترا واطّلع على أهم معالمهما الثقافية والدينية والتاريخية والتراثية، وقد كانت رحلته هذه طويلة بعض الشيء، وذلك الطول النسبي سيشعل في ذهنه إجراء مقارنات بين الشرق والغرب، ومن ملامح تلك المقارنات ما قاله عن المرأة الغربية: "حتى لو نُسب الفضل الأكبر في المدينة الحديثة لكان أكثره يرجع إلى المرأة، فالمرأة التي تربي الأمة وهي التي تعوّد أبناءها النظام والأخلاق"(٥١). وهو بهذا الوصف ينتقد وضع المرأة المصرية خصوصا والشرقية عموما، فقد راعه الأدوار العظيمة التي تنهض بها المرأة الغربية، بل جعلها أساس نهضة تلك الأمم ورقيها. وهو بهذا يستنهض المرأة في مجتمعه كي تأخذ دورها الخلاّق في البناء والتنمية جنبا إلى الرجل، وذلك لا يبدأ إلا من خلال التعليم.

رابعاً: أثر تعلّم اللغات الأخرى في تكوين أحمد أمين

يوجّه أحمد أمين في سيرته الطلبة والباحثين والمتخصصين في العلوم المختلفة إلى ضرورة تعلّم اللغات الأخرى؛ فلا سبيل للاطلاع على معارف الأمم المتحضرة دون إتقان لغاتها. وقد بدأ اهتمامه بتعلم اللغات الأجنبية أثناء عمله معيدا في مدرسة القضاء (تقريبا عام ١٩١٤م)، ولعلّ ما دفعه إلى ذلك مخالطته للأساتذة العصريين الذين يُحضّرون دروسهم من مصادر أجنبية مختلفة إنجليزية أو فرنسية، وسبب آخر أن أغلب مذكرات أستاذه (عاطف بيك بركات) في الأخلاق وهي المادة التي كان يُدرّسها في مدرسة القضاء كانت تعتمد على مصادر باللغة الإنجليزية، ومن ثم فقد رأى أنّ تعلّم اللغات الأجنبية من الضرورات التي لا يمكن لأي باحث الاستغناء عنها.

ومن أطرف ما وصف نفسه بعد تعلّمه اللغة الإنجليزية قوله: "لقد كنت ذا عين واحدة فأصبحت ذا عينين، وكنت أعيش في الماضي فصرت أعيش في الماضي والحاضر، وكنت آكل صنفا واحدا من مائدة واحدة فصرت آكل أصنافا متعددة على موائد مختلفة،... لو لم أجتز هذه المرحلة ثم كنت أديبا لكنت أديبا رجعيا"(٥٢). فالمسألة في نظر أحمد أمين تتمثل في معايشة روح العصر، والاطلاع على ثقافة الآخر بلا وسيط، وعدم التقوقع في الماضي؛ بل الجمع بين الماضي والحاضر، والتوليف بينهما.

يكشف أحمد أمين لقرّاء سيرته عن الجهد الكبير الذي بذله في تعلّم اللغة الإنجليزية؛ والساعات الطوال التي ينفقها كلّ يوم ليتمكّن من ترجمة صفحات معدودة. كما يشير إلى

ملازمته أستاذة إنجليزية (مس بور) مدة أربع سنوات كاملة يتعلّم منها اللغة الإنجليزية وأمور الحياة الأخرى التي كان يفتقدها، أيضا قرأ معها بعض الكتب في الأخلاق والاجتماع، كما قرأ معها فصولا كثيرة من جمهورية أفلاطون. ثم ينتقل إلى أستاذة إنجليزية أخرى فيتبادل معها التعليم، هي تعلّمه الإنجليزية وهو يعلّمها العربية، وقد قرأ معها قصص شكسبير.

وهكذا بالجدّ والاجتهاد والمواظبة على التعلّم وبما عُرف عنه من قوة إرادة في التحصيل العلمي استطاع إتقان اللغة الإنجليزية، إتقانا مكّنه من فهم ما يُقرأ من مراجع مختلفة، بل أصبح له مكتبتان: عربية وإنجليزية[٥٣]، وكان يتردد على المكتبة الإنجليزية لاقتناء ما يفيده في تحضير دروس مادة الأخلاق التي كان يُدرّسها في مدرسة القضاء، كما وظّف اللغة الإنجليزية في تحضير دروس البلاغة التي كان يدرّسها لطلبة كلية الآداب بالجامعة.

وقد استطاع أحمد أمين من خلال تعلّمه للغة الإنجليزية أن يترجم كتاب مبادئ الفلسفة لمؤلفه (رابوبورت)، عام ١٩١٨م، وقد لقي الكتاب استحسانا من القرّاء والمختصين، وقد كان ذلك باكورة نتاجه في النشر العلمي.

خامساً: "لجنة التأليف والترجمة والنشر" ودورها الرائد في نشر الثقافة والمعرفة

الحديث عن (لجنة التأليف والترجمة والنشر) يملأ النفس غبطة، والشعور سعادة، حينما يُمتعنا أحمد أمين في جانب من سيرته بأخبار تلك اللجنة، فهي نتاج نفر من الشباب المتعلّم المتأهب لنشر العلم والثقافة والمعرفة، المناضل لإصلاح مجتمعه، فقد اجتمع ثُلة من متخرجي مدرسة المعلمين العليا عام ١٩١٤م وانضم إليهم بعض زملائهم من مدرسة الحقوق، وشكّلوا لجنة كان لها عظيم الأثر في رفد المكتبة العربية بكنوز ما زالت ماثلة إلى يومنا هذا. تأسست تلك اللجنة بجهود ذاتية بلا تمويل أو مقر، فكان أعضاؤها يدفعون من جيوبهم اشتراكا رمزيا (عشرة قروش كلّ شهر) لتمويل أنشطتها، ويجتمعون في بيوتهم أو في بعض المدارس، وربما في بعض المقاهي أو في الصحراء، يتدارسون سبل النهوض بلجنتهم، وبمثابرتهم وإخلاصهم في عملهم أصبح للجنة مقرا في أجمل أحياء القاهرة، وزاد عدد أعضائها إلى أكثر من ثمانين عضوا، وأسست مطبعة خاصة بها، وصدرت عنها مجلة (الثقافة) التي ساهمت بدور كبير في إثراء الحياة الثقافية في مصر والعالم العربي.

وعن الأجواء الثقافية التي سبقت تأسيس اللجنة يصف أحمد أمين اجتماعاته بتلك الثلة المثقفة والتي كان أغلبها مرشحا للبعثة إلى إنجلترا وقد منعتهم الحرب من متابعة بعثتهم، فقد كانوا يجتمعون في بعض المقاهي وكل واحد منهم يُدلي بدلوه في علم من العلوم، فهذا متخصص في الكيمياء، وذاك في التاريخ، وآخر في الأدب. حقا إنها مدرسة تحفل بثقافات متعددة، ومعارف متنوعة، وقد وصف تلك المدرسة بقوله: "مدرسة يكون فيها التلميذ أستاذا، والأستاذ تلميذا، وإن شئت فقل إن كلّ ما فيها أستاذ تلميذ، مدرسة فيها حرية القول وحرية السماع وحرية الموضوع وحرية كل شيء. تقارب فيها سن الأساتذة والتلاميذ فتجانست مشاعرهم، وتشابهت آمالهم ومطامحهم، وتفتحت نفوسهم للاستفادة من تنوع مذاهبهم"(٥٤)، وفي العام ١٩٣٤م أي بعد مرور عشرين عاما على تأسيس اللجنة كتب أحمد أمين مقالا في مجلة الرسالة يصف فيه عمل اللجنة، ويثني على مؤسسيها ويعرض أبرز نتاجاتها العلمية والفكرية، ومما قاله: "بعد عشرين سنة من حياتها يحق للجنة أن تقف وقفة قصيرة تنظر في ماضيها وتستعرض تاريخها، وأظنها تغتبط لذلك -أولا- لأنها عاشت عشرين عاما في جوّ كثيرا ما تموت فيه مشروعات وليدة - وثانيا - لأنها عاشت عيشة طبيعية فتدرجت في أدوار الحياة على مهل ولم تطفر طفرة شيطانية. وتغتبط إذ تراها قد ضمت كثيرا من صفوة رجال العلم، وأخرجت للناس نحو الستين كتابا بين مؤلف ومترجم ومنشور، تسدّ كلها حاجات الثقافة في أطوار التعليم المختلفة"(٥٥).

وعلى صعيد الترجمة فقد كان للّجنة إسهامات كثيرة، فقد ترجمت "العديد من الكتب الموسوعية والأعمال الأدبية والعلمية والتربوية الهامة، كما كان لها دور كبير في تخريج جيل من المترجمين الرّواد، وفي وضع قواعد أساسية للترجمة إلى العربية وتوليد واستحداث عدد من المصطلحات. وهي عوامل ساهمت في دفع الترجمة في العالم العربي إلى الأمام"(٥٦).

ومن الجدير بالذكر أنّ أحمد أمين ظلّ رئيسا للجنة منذ تأسيسها إلى قبل وفاته بقليل، ربما مدة أربعين عاما، شعاره الإيمان بمشروعه المعرفي الحضاري، وإخلاصه له؛ وممّا يدلل على ذلك الإخلاص ما ذكره في سيرته عن نيته بعد أن أحيل على التقاعد إنشاء هيئة للنشر يتربح منها، فقرر الاستقالة من لجنة التأليف كي لا يتعارض عمله الخاص مع عمل اللجنة،

ولكنه يعدل عن فكرته لرفض زملائه في اللجنة قبول استقالته، ثم يُعبّر عن علاقته العاطفية بتلك اللجنة بقوله: "وبقيت في اللجنة أشرف عليها وهي عزيزة علي، فقد صحبتها منذ أول عهدي بالشباب، وصارت جزءا من نفسي، نمت بنموي وإن لم تشخ بشيخوختي"(٥٧).

وقد كانت اللجنة أول مؤسسة في الشرق تُعنى بالتأليف والترجمة والنشر، وقد صدر عنها خلال فترة رئاسة أحمد أمين أكثر من مئتي كتاب في مختلف المعارف والعلوم، ومن أبرز العناوين: (قصة الفلسفة الحديثة) و(تاريخ الفلسفة الغربية)، و(تاريخ الفلسفة في الإسلام) و(قصة الحضارة) و(جزيرة العرب في القرن العشرين) و(تحقيق العقد الفريد، والأغاني، وديوان المتنبي)، (وقصة الأدب في العالم) و(خلاصة علم النفس)...الخ من الكنوز الثمينة التي أضافت للمكتبة العربية في مصر وسائر الأقطار العربية(٥٨).

سادساً: "الجامعة الشعبية" أو مؤسسة الثقافة الشعبية"

ولدت فكرة الجامعة الشعبية أثناء فترة انتداب أحمد أمين عام (١٩٤٥م) مديرا للإدارة الثقافية بوزارة المعارف، وكانت هذه الوظيفية لا تختلف عن أيّ وظيفة إدارية أخرى، أبرز اختصاصاتها ترشيح الأساتذة المنتدبين إلى الدول العربية، وكذلك تنظيم التحاق الطلبة الوافدين من الأقطار الأخرى للدراسة في مصر، إضافة إلى بعض المهام الأخرى، ويبدو لي أن أغلب من تقلّدوا هذا المنصب لم يخرجوا في أعمالهم عن ذلك الإطار. ولكن تشاء الأقدار أن تسند المهمة إلى أحد سدنة الثقافة والمعرفة بمصر، وإلى أبرز أعلام الإصلاح والتنوير، فكيف يقبل أحمد أمين أن يقتصر دوره على أعمال إدارية روتينية يمكن أن يقوم بها موظف عادي؛ فقد عكف مع بعض الشباب على دراسة السبل التي تحقق الانتشار المعرفي المأمول في المجتمع، فخرجت فكرة الجامعة الشعبية التي تهدف إلى نشر الثقافة بمفهومها الواسع، فالثقافة عنده تشمل: التربية في الأسرة وفي المدارس وفي الشوارع والمجتمعات، وأينما يكون الإنسان(٥٩)، فليست الثقافة كما يراها البعض قراءة وكتابة، بل هي نشاط إنساني يمكن أن يتحصّل عليها كلّ فرد من أفراد المجتمع مهما كان تحصيله الأكاديمي ومهما كان سنّه، ومهما كانت الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها، لذا سترى في هذه الجامعة "الموظف الكبير والعامل الصغير يدرسان جنبا إلى جنب فنا جديدا، وترى السيدة وابنتها بجانبها تتعلمان تدبير المنزل"(٦٠).

يصف أحمد أمين شعوره بإنشاء (الجامعة الشعبية) فيقول: "لم أعتز بشيء اعتزازي بابنتي العزيزة الجامعة الشعبية"(٦١). وفكرة الجامعة الشعبية فكرة مبتكرة قدّمها صاحب السيرة إلى الأمة المصرية؛ لأنه كان يرى أن "الارتقاء بجماهير الأمة لا نستطيع الوصول إليه عبر باب الجامعة، وعليه يحتاج الناس إلى إنشاء جامعة شعبية تعلّمهم وتثقفهم وتوعيهم"(٦٢).

لقد فهم أحمد أمين أن الثقافة بعموميتها تكمن في تعليم الناس العلوم الميسّرة، والفنون البسيطة، والصناعات الفنية، وأن مصادرها لا تنحصر بالمدرسة والجامعة، فالثقافة يمكن أن تنتقل من خلال فيلم وثائقي، حتى أنه "جعل صناعة حياكة الثياب وفنون التطريز وأشغال الإبرة للفتيات من مواد الدراسة في جامعته الشعبية"(٦٣)، وقد اتسعت تلك الجامعة لتشمل الأقاليم المصرية، "ولم يمض إلا قليل حتى أصبح عدد الطالبين والطالبات فيها يتجاوز سبعة عشر ألفا، وأصبحت ميزانيتها نحو سبعين ألفا"(٦٤).

لقد زرع صاحب السيرة بذرة الثقافة والمعرفة في وقت مبكر، لتضرب جذورها الراسخة، وتتفرع إلى كيانات ثقافية كثيرة ما زال صداها قائما حتى يومنا هذا؛ فقد كان "إنشاء الجامعة الشعبية عام ١٩٤٥م، ثم جامعة الثقافة الحرة التي استمرت حتى يوليو عام ١٩٥٨م، ثم نُقل تبعية هذا الجهاز بعد الثورة إلى وزارة الثقافة والإرشاد القومي، بمثابة بداية الاهتمام الجدي بفنون الشعب"(٦٥). وأصبحت مهمة تلك الجامعة نشر الوعي القومي في العاصمة والمحافظات وتقديم رسالة الثقافة بالمعنى الواسع للكلمة(٦٦).

سابعاً: أمهات المصادر العربية

ومن الجوانب التعليمية الهامة التي تظهر بوضوح في سيرة أحمد أمين اشتمالها على عدد زاخر من المراجع المتنوعة في مختلف الموضوعات؛ فالقارئ الحصيف سيتعرف على الكثير من أمهات الكتب العربية والأجنبية، ولعلّ هذا الجانب لم يلتفت له كثيرون ممن درسوا سيرته، الأمر الذي يجعل منها ثبتا معرفيا لكل القرّاء على اختلاف مستوياتهم وأعمارهم وتخصصاتهم وثقافاتهم.

ومن المراجع التي وردت في سيرته: "تاريخ ابن الأثير" و "وفيات الأعيان" و"فاكهة الخلفاء" و"كليلة ودمنة" و"مقامات الحريري" و"شرح الأجرومية" و"قطر الندى" و"شذور

الذهب لابن هشام" و"شرح ابن عقيل على الألفية" و"نجعة الرائد للشيخ إبراهيم اليازجي" و"دلائل الإعجاز" وأسرار البلاغة" و" نهج البلاغة" و"أدب الدنيا والدين" و"مقصورة ابن دريد وشرحها" و"مختصر صبح الأعشى" و"الموافقات للشاطبي" و"تاريخ الفلك عن العرب للأستاذ نللينو" و"أصول الفقه للشيخ الخضري" و"ديوان الحماسة وشرحه" و" Theology of Islam" للمستشرق مكدونالد، و"جمهورية أفلاطون" و"قصص شكسبير للامب" وّديوان أبي الطيب المتنبي" وّديوان أبي نواس" و"مقدمة ابن خلدون" و"الأغاني" و"العقد الفريد" و"كتاب نفح الطيب" و"مبادئ الفلسفة-لرابوبورت" و"الوساطة بين المتنبي وخصومه" و"الموازنة بين ابي تمام والبحتري" و"نقد الشعر ونقد النثر لقدامة بن جعفر" و"طبقات ابن سلام" و"طبقات الشعراء لابن قتيبة" و"الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي" و"قصة الفلسفة اليونانية" و"قصة الفلسفة الحديثة" و"قصة الأدب في العالم" و"اعترافات تولستوي" "المنقذ من الضلال للغزالي"...الخ، بالإضافة إلى كتبه الشهيرة: فجر الإسلام، وضحى الإسلام، وظهر الإسلام، وفيض الخاطر بمجلداته الثمانية.

ولعلّ بعض هذه المصادر أصبح معرفته اليوم حكرا على خاصة العلماء والمثقفين والمتخصصين، مما يشي بالدور الكبير الذي تقدّمه سيرة أحمد أمين لقرّائها لا سيما صغار المتعلمين وغير المتخصصين في مجال الإنسانيات؛ فتلك المكتبة العربية وما تحويه من كنوز باتت غائبة عن كثير من المتعلمين فما بالنا بأنصافهم أو معدميهم؟ والحق أنّ سيرة أحمد أمين من السيّر القليلة التي جمعت ذلك الكم الهائل من عناوين الكتب؛ والتي تشكّل مكتبة متنوعة في شتّى المعارف والعلوم.

ثامناً: الصحف والمجلات الثقافية

ومن الآثار التعليمية التي يظفر بها قارئ السيرة تناول صاحبها لأبرز الصحف والمجلات التي كانت تصدر في تلك الحقبة من تاريخ مصر والأمة العربية، ومن الصحف الشهيرة التي تناولها في سيرته: (اللواء) و(المُؤَيِّد) و(المُقَطَّم)، وقد وصف تلك الصحف بقوله: "فأرى جريدة اللواء تلهب الشعور الوطني ولا تجاوبها نفسي تبعا لشيخي، والمُقَطَّم تقاوم الحركة الوطنية ولم يجاوبها كذلك نفسي، وربما كان المُؤَيِّد أحب إليّ لصبغته الإسلامية"(٦٧). كما أورد في السيرة صحيفة الجريدة (يرأس تحريرها الأستاذ أحمد لطفي السيد) وصحيفة السُّفُور.

ومن المجلات الأدبية والثقافية التي لا زالت إلى يومنا هذا تمثّل نبعا غزيرا في شتى صنوف المعرفة: (مجلة الرسالة) و(مجلة الثقافة) و(مجلة المُصوِّر) و(مجلة الهلال). وكل تلك المجلات لا زالت تحتفظ بها المكتبة العربية، ولا زالت من المصادر الهامة التي لا يستغني عنها باحث أو طالب علم.

وتعدّ مجلة الثقافة من المجلات الأثيرة إلى قلبه، كونها كانت نتاج لجنة التأليف والترجمة والنشر، وقد استمرت في الصدور ردحا من الزمن، ولكنها توقفت سنة ١٩٥٣ بسبب الخسائر المتراكمة "وقد حزن الأعضاء والقارئون على وقوفها، ولكن ماذا يجدي الحزن العاطفي أمام الخسائر الفادحة؟"(٦٨).

تاسعاً: الشخصيات الإصلاحية والثقافية

جانب آخر يستخلصه قارئ السيرة، احتفال كاتبها بذكر كوكبة من أشهر رجالات الأدب والثقافة والإصلاح والتنوير في ذلك الزمان، ممن أثروا الحياة الأدبية والثقافية والعلمية، وكان لهم إسهامات كثيرة في المجتمع المصري، وقد امتد أثرهم التنويري ليشمل العالم العربي برمته، ومن أبرز الشخصيات التي كان لها ذكر وافر شخصية الإمام محمد عبده، حيث تناول أبرز دعواته الإصلاحية في غير موقع من السيرة، وقد أبدى إعجابه بآرائه الفكرية، وبالحركة الإصلاحية التي كان يقودها لإصلاح الأزهر والقضاء والنظام التعليمي في مصر. ومما قاله في وصفه عندما تأسست مدرسة القضاء الشرعي: "وكان قد عهد إلى الشيخ محمد عبده بالتفتيش على المحاكم الشرعية وفحص عيوبها، فقام بذلك خير قيام، وكتب تقريرا عظيما، يُبيّن فيه هذه العيوب، ويقترح وجوه الإصلاح، وعلى إثر ذلك فكّرت نظارة الحقانية في إنشاء المدرسة"(٦٩)، كما ذكره في معرض مدحه لصديق التقاه في الإسكندرية وكان يعتبره أستاذه الثاني: "ويؤيد الشيخ محمد عبده في دعوته إلى الإصلاح"(٧٠). فالقارئ سيتوقف كثيرا عند الإمام محمد عبده، وربما يستفزّه ذلك إلى البحث البحث عن آراء الرجل الإصلاحية واستقصائها من مظانّها المختلفة، والتعرّف على إنجازاته، والإشكاليات التي أثارها في عصر ساده تقديس الماضي، والاحتجاج بالقديم لا لشيء إلا لأنه قديم، وإذا أخطأ مؤلف من القدماء "فهناك ألف وجه لتأويل كلامه بما يحتمل الصواب"(٧١).

كما حفلت السيرة بشخصيات وطنية وتعليمية كان لها عظيم الأثر في مصر، ومنها شخصية أستاذه (عاطف بك بركات) الذي تأثر به كثيرا، وكان له عظيم الأثر في حياته، وقد أفرد له مساحة معقولة في سيرته، وما يهمنا في هذا المقام التركيز على الجوانب التي تأثّر بها وشكّلت جانبا من حياته العلمية والمهنية.

شغل عاطف بك بركات أول مدير لمدرسة القضاء الشرعي، وكان له الفضل في قبول أحمد أمين عام ١٩٠٧م عندما أخفق في الفحص الطبي، كما كان له الفضل في اختياره مُعيدا في مدرسة القضاء، وجعله يُدرّس مادة الأخلاق التي كان يُدرّسها؛ فقد كان يعتبره أستاذه الثاني بعد والده "لقد تسلّمني من أبي بعد أن ربّاني التربية الأولى فربّاني التربية الثانية"(٧٢).

ونظرا لاختيار عاطف بركات أحمد أمين مُعيدا يُدرّس معه مادة الأخلاق فقد توطّدت العلاقة بينهما، فكان يذهب إلى بيته في كثير من الأيام لتحضير درس الأخلاق، وكان يحضّره من كتب الأخلاق الإنجليزية، فيقرأ بالإنجليزية ويملي عليه بالعربية، كما عزّز لديه ملكة الجدال في مختلف الموضوعات، وقد أفاده ذلك بأن أصبح "أكثر تسامحا مع المخالفين، وأوسع صدرا للمعارضين"(٧٣).

ومن الصفات الجليلة التي أثبتها أحمد أمين لأستاذه، قوة التحليل وسلامة التفكير، وحرية الرأي وقوّة الحُجة، والإلحاح في الإقناع، وسعة الصدر للرأي المُخالف، ومن ميزاته إخلاصه في أداء عمله، وعدله التام ولو لقي في ذلك العناء، وحبّه الدقيق للنظام، فقد كان الناس يضبطون ساعاتهم على موعد خروجه، وصدق القول حيث لم يأخذ عليه طالب أو أستاذ كذبة واحدة، كما أنّه كان يكره سفاسف الأمور وتوافه القول، إذا تدنى مستوى محدثه رفعه إلى مستواه. أما عيوبه فتتجلى في قلة مجاملته، وصراحته التي قد تجرح، وكذا نظامه العسكري في غير ترفيه(٧٤).

تلك الصفات الجليلة والعشرة الطويلة التي امتدت قرابة ثمانية عشر عاما، كان لها أثر بالغ في شخصية أحمد أمين، وقد ظل متأثرا بها حتى بعد أن أصبح مُمثلا لكلية الآداب في مجلس الجامعة، ثم عميدا لكلية الآداب، فكان لا يجامل مهما كلّفه الأمر، ويصدع بالحق مهما كانت العقبات، ومن الشواهد التي يذكرها أحمد أمين في فضل أستاذه عليه قوله:

"ولقد شعرت في هذا المجلس بفضل (عاطف بركات) وما علمنيه من قول الحق ولو كان مُرّا، والانتصار له ولو أُوذيت في سبيله"(٧٥). إضافة إلى ما اكتسبه من الإخلاص في العمل، والجدّ في البحث والدرس، والانضباط في كل شيء، والتحرر كثيرا من مباهج الحياة.

وقارئ سيرة أحمد أمين يستشف عمق العلاقة التي كانت تربطه بأستاذه عاطف بركات، الذي وصفه بالأب الروحي، ولعلّ حديثه عن موقف وفاته ومدى الحزن الذي أصابه يعكس "لنا من داخل ذاته أثر عاطف بركات في شخصيته، وينقله نقلا نحس معه بأغوار نفسه وخبايا شعوره"(٧٦).

إن تناول مثل هذه الشخصيات له عظيم الأثر على قارئ السيرة من الناشئة والمثقفين؛ فهي تشكّل دافعا قويا للتعرّف على تاريخ تلك الفترة التي عاشتها مصر، وعلى أبرز العلماء الإصلاحيين والتنويرين الذين أخلصوا في عطائهم، فكانوا روّادا عظاما في إرساء دعائم نهضة ثقافية ومعرفية، وسيبقى تاريخنا الحديث يحفظ لهم ريادتهم وسابق فضلهم.

الخـاتمة:ـ

ألقت الدراسة الضوء على الجانب التعليمي في سيرة أحمد أمين، كونه يمثّل الجانب الأبرز في سيرته، فقد عاش الرجل ثمانية وستين عاما قضى جلّها في التعليم طالبا ومعلما ومؤلفا ومحققا وناقدا، حتى حديثه عن طفولته فقد أفاض في الحديث عن الجوانب التعلمية التي كان يتلقاها في بيته في ظل والده العالم الأزهري.

تناول أحمد أمين في سيرته خمسة أنماط تعليمة عاصرها، وقد فصّل القول في كلّ نمط من الأنماط، ذاكرا عيوبه ومزاياه، فقد بدأ حديثه عن الكُتّاب الذي كان يمثّل أول مرحلة دراسية التحق بها، وقد وصفه بأقذع الأوصاف، وتحدث عن قصوره في تعليم النشء وتربيتهم. ثم انتقل للحديث عن المدرسة الابتدائية التي امتدح نظامها التعليمي وامتدح طلبتها وقبل ذلك أعجب ببنائها الذي يتناسب والعملية التعليمية، فالبيئة التعليمية لها دور كبير في جذب الطلبة وترغيبهم بالتعلّم والإقبال عليه. ثم انتقل بعد ذلك إلى مرحلة أخرى هي مرحلة التحاقه بالأزهر، والذي وصفه بأنّه امتداد للكُتّاب، وقد ذكر افتقار الأزهر للخطة الدراسية المُحكمة، فالطالب لا يعرف أين يذهب وماذا يدرس، إضافة إلى البيئة التعليمة المُنفّرة، والأهم من ذلك تقوقع أساتذته في بوتقة الماضي، وتقديسهم

للكتب الصفراء، إضافة إلى تشتيت الطلبة في الحواشي والتعليقات التي تُذهب الأذهان وتُشغل العقول.

أما النمط الآخر الذي أعجب به ورأى أنه من أهم الأنماط التعليمية التي كان لها دور في تكوينه، مدرسة القضاء الشرعي، فقد وصف نظامها التعليمي الذي يزاوج بين القديم والحديث، فمناهجها موزعة بين علوم الدين والدنيا، إضافة إلى نخبة من الأساتذة مختلفي المشارب كلّ واحد منهم يلوّن الطالب بصبغة مختلفة، كما امتاز هذا النمط بصرامته، وجديته، وتميز أيضا بتشجيع الطلبة من خلال الحوافز التي تُمنح للطلبة المُبَرَّزين.

وآخر نمط تناوله في سيرته عمله مُدرّسا في كلية الآداب في الجامعة المصرية، وقد ذكر بأنه نمط مختلف تماما عن الأزهر ومدرسة القضاء، وقد قارن بين المدرسة والجامعة، فإن كانت المدرسة تعلّم آخر ما وصل إليه العلم، فإن الجامعة تسعى إلى اكتشاف المجهول من العلم، ولا تقف عند ذلك وحسب؛ بل تنقد ذلك الجديد، وتعدّله، وتُحلّ جديدا مكان القديم، وتهدم رأيا وتبني آخر جديدا مكانه، ولمّا كان البحث من أهم مزايا الجامعة، فقد شجّعه ذلك على الخوض في مشاريع بحثية كثيرة، رفدت المكتبة العربية، وكانت -بحق- علامات فارقة تحسب له.

ومن الجوانب التعليمية التي تناولتها الدارسة الجانب البحثي، فقد فصّل أحمد أمين طرائق البحث العلمي التي اتّبعها في تأليفه كتابيه الشهيرين (فجر الإسلام وضحى الإسلام) وكيف كان يجمع مواد موضوعاتهما من مظانّها المختلفة، وكيف يرتب بطاقات البحث، وينعم النظر بها، إلى أن يَفرغ من الموضوعات واحدا تلو الآخر، كما لا يغيب عنه أن يوضّح للقارئ ما أخذه على نفسه من الجدّ والاجتهاد وحسن التنظيم.

كما تحفل السيرة بذكر العديد من أمهات الكتب التي قلّما نجدها في سير أخرى، إضافة إلى ذكر أبرز المجلات الثقافية التي ما زال صداها إلى يومنا هذا لما تتضمنه من علوم ومعارف عديدة مثل مجلتي (الثقافة) و(الرسالة). أيضا تحفل السيرة بأسماء بارزة ممّن حملوا لواء الإصلاح والتنوير في مصر والعالم العربي، أمثال الإمام محمد عبده، وناظر مدرسة القضاء عاطف بك بركات.

وتتعدد الجوانب التعليمية الأخرى في سيرة أحمد أمين، حيث يقدّم لقرّائه تجربته في تعلّم اللغات الأجنبية وكيف كان لها عظيم الأثر في تكوينه الفكري والمعرفي، ثم ينقل القارئ إلى رحلاته العلمية الكثيرة التي قام بها إلى الشرق والغرب، وأثر ذلك التواصل في تحديد مفهوم المثاقفة الإيجابية، ودعوته إلى ضرورة التأمّل في التجارب الأخرى ونقل ما يناسب منها طبيعة مصر وثقافتها.

ومن أطرف ما تقدمه السيرة لقرّائها حديثه عن أهم إنجازين قدّمهما للمجتمع، الأول: تأسيسه لجنة التأليف والترجمة والنشر والتي كان لها عظيم الأثر في تأليف العديد من الكتب، وتحقيق أمهات المصادر العربية، وترجمة نفائس الحضارة الغربية، وقد وصل نتاجها إلى مئتي كتاب خلال أربعين عاما، ونتج عنها مجلة الثقافة التي احتلت مكانة متميزة في ذاك الزمان. والثاني: تأسيسه للجامعة الشعبية التي تُعنى بنشر الثقافة بمفهومها الواسع بين مختلف طبقات المجتمع.

مما سبق يتبدى لنا بوضوح الآثار التعليمية العديدة التي تقدّمها سيرة أحمد أمين في شتى الجوانب، وقد صدق حينما صرّح في مقدمته عن دوافعه في كتابة سيرته حينما قال: "فلماذا لا أؤرخ "حياتي" لعلّها تصوّر جانبا من جوانب جيلنا، وتصف نمطا من أنماط حياتنا، ولعلّها تفيد اليوم قارئا، وتعين غدا مؤرخا".

هوامش البحث

(١) شرف، عبد العزيز: أدب السيرة الذاتية، المصرية العلمية للنشر لونجمان، القاهرة، ط١، ١٩٩٢، ص ١٧.
(٢) المرجع نفسه، ص ١٦.
(٣) ضيف، شوقي: الترجمة الشخصية، دار المعارف- القاهرة، ط٤، ١٩٨٧، ص ١٢١.
(٤) عباس، إحسان: فن السيرة، دار صادر، بيروت ودار الشروق، عمان، ط١، ١٩٩٦، ص ١٢١.
(٥) ضيف، شوقي: الترجمة الشخصية، ص ١٢١.
(٦) عباس، إحسان: فن السيرة، ص ١٣٨.
(٧) شرف، عبد العزيز: أدب السيرة الذاتية، ص ٢١.

(٨) المرجع نفسه، ص ١١٦.
(٩) عباس، إحسان: فن السيرة، ص ١٠٢.
(١٠) العسل، عصام: فن كتابة السيرة الذاتية- مقاربات في المنهج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠١٠، ص ٣٠.
(١١) عبد الدايم، يحيى إبراهيم: الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، ط١، ١٩٧٤، ص ٢٦٠.
(١٢) أمين، أحمد: حياتي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ط١، ٢٠١٢، ص ٤٠.
(١٣) أمين، أحمد: حياتي، ص ٤٠.
(١٤) المرجع نفسه، ص ٤٠.
(١٥) المرجع نفسه، ص ٤٣.
(١٦) المرجع نفسه، ص ٤٤.
(١٧) انظر: المرجع نفسه، ص ٥٩.
(١٨) أمين، أحمد: حياتي، ص ٤٦.
(١٩) عويضة، كامل محمد: أحمد أمين المفكر الإسلامي الكبير، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١، ١٩٩٥، ص ١٥.
(٢٠) أمين، أحمد: حياتي، ص ٥٠.
(٢١) المرجع نفسه، ص ٥٠.
(٢٢) المرجع نفسه، ص ٥١.
(٢٣) المرجع نفسه، ص ٥١.
(٢٤) أمين، أحمد: حياتي، ص ٥٢.
(٢٥) المرجع نفسه، ص ٥٤.
(٢٦) عبد الدايم، يحيى إبراهيم: الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص ٢٦٨.
(٢٧) أمين، أحمد: حياتي، ص ٥٤.
(٢٨) أمين، أحمد: حياتي، ص ٦٠.
(٢٩) المرجع نفسه، ص ٦٩.
(٣٠) أمين، أحمد: حياتي، ص ٧٦.
(٣١) المرجع نفسه، ص ٧٦.
(٣٢) المرجع نفسه، ص ٧٦.
(٣٣) المرجع نفسه، ص ٧٦.
(٣٤) أمين، أحمد: حياتي، ص ٧٧.

(٣٥) المرجع نفسه، ص ٥٩.
(٣٦) أمين، أحمد: حياتي، ص ٥٩.
(٣٧) المرجع نفسه، ص ٥٩.
(٣٨) المرجع نفسه، ص ١٤٧.
(٣٩) المرجع نفسه: ص ١٤٩.
(٤٠) أمين، أحمد: حياتي، ص ١٨٩.
(٤١) انظر: المرجع نفسه، ص ١٩١.
(٤٢) أمين، أحمد: حياتي، ص ١٥٠.
(٤٣) المرجع نفسه، ص ١٥٠.
(٤٤) المرجع نفسه، ص ١٥١.
(٤٥) أحمد، صلاح زكي: أعلام النهضة العربية الإسلامية في العصر الحديث، مركز الحضارة العربية-القاهرة، ط١، ٢٠١١، ص ١١٩.
(٤٦) أمين، أحمد: حياتي، ص ١٥٤.
(٤٧) أمين، أحمد: حياتي، ص ١٥٥.
(٤٨) المرجع نفسه، ص ١٥٧.
(٤٩) المرجع نفسه، ص ١٥٥.
(٥٠) أمين، أحمد: حياتي، ص ١٥٩.
(٥١) أمين، أحمد: حياتي، ص ١٨٢.
(٥٢) أمين، أحمد: حياتي، ص ١١٠.
(٥٣) انظر: المرجع نفسه، ص ص: ١١٧ - ١٢٠ (يصف المكتبة العربية والمكتبة الإنجليزية، ويقارن بينهما في طريقة ترتيب الكتب وتبويبها، كما يقارن بين صاحبي المكتبتين.)
(٥٤) أمين، أحمد: حياتي، ص ١١٣.
(٥٥) أمين، أحمد، مجلة التأليف والترجمة والنشر: مقال منشور في مجلة الرسالة، العدد ٧٠، نوفمبر ١٩٣٤.
(٥٦) سباط، حسام محمد سعد: تحديات النهوض بالترجمة في العالم العربي، دار الكتب العلمية-بيروت، ط١، ٢٠١٦، ص ٣٣.
(٥٧) أمين، أحمد: حياتي، ص ٢٠٧.
(٥٨) انظر الطماوي، أحمد حسن: مقال بعنوان: "لجنة التأليف والترجمة والنشر" نموذج جاد للعمل الجمعي بين المثقفين، القاهرة، ٢٠١٠، (https://www.masress.com/alkahera/1537)
(٥٩) أمين، أحمد: الشرق والغرب، مؤسسة هنداوي سي آي سي، المملكة المتحدة، ط١، ٢٠١٧، ص ٣٩.
(٦٠) أمين، أحمد: حياتي، ص ٢٠٢.

(٦١) المرجع نفسه، ص ٢٠٢.
(٦٢) عبد الله، يسري عبد الغني، "العلاقة بين التعليم والثقافة": مقال منشور في مجلة عود الند، العدد ١٠١، نوفمبر ٢٠١٤ (https://www.oudnad.net/spip.php?article1254)
(٦٣) المرجع نفسه
(٦٤) أمين، أحمد: حياتي، ص ٢٠٢.
(٦٥) عبد الحافظ، إبراهيم: التراث والتغير الاجتماعي (الفنون الأدبية الشعبية)، مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، القاهرة، ط١، ب ت، ص ٧٤.
(٦٦) انظر: المرجع السابق، ص ٨١.
(٦٧) أمين، أحمد: حياتي، ص ٦٦.
(٦٨) أمين، أحمد: حياتي، ص ١١٥.
(٦٩) المرجع نفسه، ص ٦٨.
(٧٠) المرجع نفسه: ص ٦٢.
(٧١) المرجع نفسه، ص ٧٣.
(٧٢) أمين، أحمد: حياتي، ص ١٤٤.
(٧٣) المرجع نفسه، ص ٩٢.
(٧٤) انظر: المرجع نفسه، ص ص ١٤٤-١٤٥.
(٧٥) المرجع نفسه، ص ١٨٨.
(٧٦) عبد الدايم، يحيى إبراهيم: الترجمة الذاتية في الأدب العربي، ص ٢٧٢.

قائمة المصادر والمراجع

- أحمد، صلاح زكي: **أعلام النهضة العربية الإسلامية في العصر الحديث**، مركز الحضارة العربية- القاهرة، ط ١، ٢٠١١.
- أمين، أحمد: **الشرق والغرب**، مؤسسة هنداوي سي آي سي، المملكة المتحدة، ط١، ٢٠١٧.
- أمين، أحمد: **حياتي**، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ط ١، ٢٠١٢.
- أمين، أحمد: **مجلة التأليف والترجمة والنشر**، مقال منشور في مجلة الرسالة، القاهرة، العدد ٧٠، نوفمبر ١٩٣٤.

- سباط، حسام محمد سعد: **تحديات النهوض بالترجمة في العالم العربي**، دار الكتب العلمية-بيروت، ط ١، ٢٠١٦.
- شرف، عبد العزيز: **أدب السيرة الذاتية**، المصرية العلمية للنشر لونجمان، القاهرة، ط ١، ١٩٩٢.
- ضيف، شوقي، **الترجمة الشخصية:** الطبعة الرابعة، دار المعارف- القاهرة، ط ٤، ١٩٨٧.
- الطماوي، أحمد حسن: مقال بعنوان: **"لجنة التأليف والترجمة والنشر" نموذج جاد للعمل الجمعي بين المثقفين، ٢٠١٠**، تم الاسترداد من https://www.masress.com/alkahera/1537
- عباس، إحسان: **فن السيرة**، دار صادر، بيروت ودار الشروق، عمان، ط ١، ١٩٩٦.
- عبد الحافظ، إبراهيم: **التراث والتغير الاجتماعي (الفنون الأدبية الشعبية)**، مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، القاهرة، ط ١، ب ت.
- عبد الدايم، يحيى إبراهيم: **الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث**، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط ١، ١٩٧٤.
- عبد الله، يسري عبد الغني: **"العلاقة بين التعليم والثقافة"**: مقال منشور في مجلة عود الند، العدد ١٠١، نوفمبر ٢٠١٤، تم الاسترداد من https://www.oudnad.net/spip.php?article1254
- العسل، عصام: **فن كتابة السيرة الذاتية- مقاربات في المنهج**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠١٠.
- عويضة، كامل محمد: **أحمد أمين المفكر الإسلامي الكبير**، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط ١، ١٩٩٥.